PSYCHOLOGY AND EDUCATION (2024) 61(3): 425-435
ISSN:1553-6939

THE URBAN CITY AND MULTIPLE IDENTITIES

DERDERI Mohamed
Laboratory: New Khaldouniya, Urban Institutions and Authority, Abdelhamid Ben Badis University, Mostaganem (Algeria), https://orcid.org/0009-0004-5420-5594 , E-mail: derderimed@live.fr

Received: 03/2024, Published: 04/2024

Abstract:

Sociology has been concerned through many of its branches with an approach to the social and human phenomenon in general in an attempt to understand the size of the various effects on human behavior, highlighting at the same time the features of social change, which is among the most important variables of social phenomena, if not the most important at all, this change, whose faces vary according to the environments of social life, and here the distinction between the Bedouin and urban communities, through the impact of each structure, whether urban or rural, on the social act, which is the outcome of the interaction Elements of the environment forming it

It is also not possible to talk about the impact of environments without talking about an important fact of identity, which in turn is a product of the state of interaction between the elements of the environment, but the environment is the one that determines the form and nature of this identity as well as its strength when talking about the relationship of identity to social cohesion within the city, hence the focus of this scientific paper was an attempt to read the reality of identity within the city or what we can call urban identity.

Keywords: City, Identity, Urban Identity.

المدينة الحضرية و تعدد الهويات

محمد ذرذاري
مخبر الخلدونية الجديدة والمؤسسات العمرانية و السلطة، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم (الجزائر)،
https://orcid.org/0009-0004-5420-5594 ، البريد الإلكتروني: derderimed@live.fr

ملخص:

لقد عني علم الاجتماع عبر العديد من فروعه بمقاربة الظاهرة الاجتماعية والإنسانية عموما في محاولة لفهم حجم التاثيرات المختلفة على السلوك الإنساني مبرزا في الوقت ذاته ملامح التغير الاجتماعي الذي يعتبر من بين اهم متغيرات الظواهر الاجتماعية إن لم نقل أهمها على الإطلاق، هذا التغير الذي تختلف أوجهه باختلاف بيئات الحياة الاجتماعية وهنا التمييز بين مجتمعي البداوة والحضر، من خلال تاثير كل بنية سواء كانت حضرية او ريفية على الفعل الاجتماعي الذي هو محصلة لتفاعل عناصر البيئة المشكلة له.

كما لا يمكن الحديث عن تاثير البيئات دون الحديث عن معطى مهم يتمثل في الهوية التي هي بدورها نتاج لحالة التفاعل بين عناصر البيئة بل ان البيئة هي التي تحدد شكل وطبيعة هذه الهوية وكذا قوتها حين الحديث عن علاقة الهوية بالترابط الاجتماعي داخل المدينة، من هنا كان محور هذه الورقة العلمية محاولة في قراءة واقع الهوية داخل المدينة او ما يمكن أن نطلق عليه بالهوية الحضرية.

الكلمات المفتاحية: المدينة، الهوية، الهوية الحضرية.

مقدمة:

تعتبر المدينة من بين أهم المفاهيم التي لاقت اشتغالا علميا من أجل الكشف عن ماهيتها من جهة وكذا تأثيرها على العلاقات الاجتماعية بما توفره من جهة أخرى، ولعل علم الاجتماع عموما وعلم الاجتماع الحضري قد أوكلت إليه مهمة البحث والكشف عن ماهية

المدينة ودورها، مما جعل هذا الحقل يهتم بكل ما تنتجه المدينة من إنتاجات مادية واجتماعية وكيف تؤثر هذه الإنتاجات على مناحي الحياة داخل المدن.

فبالإضافة إلى اشتغال علم الاجتماع الحضري بظهور المدن ونشأتها وكذا تطورها، فهو كذلك يحلل ويفسر وكذا يصف العلاقات الاجتماعية الحضرية وطبيعتها وأوجه تأثير البيئة الحضرية على السلوك والفعل الاجتماعي ومقارنة هذه الأفعال بين البيئتين الحضرية والريفية، هذه الأخيرة التي تطبع العلاقات الاجتماعية وفق البيئة الريفية التي تتميز بالبساطة وسيادة العلاقات الأولية وكذا التضامن العضوي كما يسميه"دوركايم"، كما أنه لا يمكن فصل الحياة الحضرية عن نظيرتها البدوية سواء على مستوى الواقع الاجتماعي أو على مستوى الحضور العلمي المتمثل في محاولة مقاربة أيا من هذين المجتمعين نتيجة الدرجة العالية من التأثير والتأثر، بل يتجاوز ذلك بحسب المنظور الخلدوني إلى مبدأ الوجود حين يعتبر أن البدو أصل للحضر وسابق عنه وبالتالي كل مقاربة تنطلق في تفسيرها لواحد من هذين العالمين باجتزاء العالم الآخر وتغييبه هي محاولة عقيمة النتائج، إن لم نقل فاشلة فشلا منهجيا وعلميا ذريعا.

فتبعا لتعدد المقاربات الحضرية والريفية لفهم الفعل الاجتماعي، تعددت كذلك الموضوعات مما زاد من ثراء المعرفة في حقل السوسيولوجيا الحضرية، حيث نجد موضوع الهوية الحضرية حاضرا بقوة في النقاشات العلمية الخاصة بالتحضر والحضرية على غرار "مدرسةشيكاغو" والمدخل الإيكولوجي "لروبرت بارك" بل وحتى منظري السوسيولوجية الكلاسيكية من أمثال"كارل ماركس" بمدخله الاقتصادي و"ماكس فيبر" بفعله العقلاني، حيث نجد أن أغلب المداخل النظرية السوسيولوجية إن لم نقل كلها تناولت البعد الحضري ومسألة المدن وهويتها بطريقة أو بأخرى، لأن كل الممارسات الاجتماعية بكل أنواعها ومسبباتها هي في نهاية المطاف نتاج لعامل التمدن والتحضر، وبالتالي تعتبر الهوية الحضرية جزء لا يتجزأ عن المسألة الاجتماعية في أعمال السوسيولوجيا سواء الأعمال المتقدمة أو المتأخرة.

من هنا نحاول في هذه الورقة العلمية تسليط الضوء على هذا الجانب المهم من جوانب التحضر والمتمثل في الهوية الحضرية، هذا المصطلح الذي يعاني كغيره من مفاهيم العلوم الاجتماعية من التعدد وعدم الثبات وبالتالي النسبية، نتيجة تعدد معطيات ومعالم توضيحه وتعريفه بحسب البيئات والأزمنة، فما يدلل عليه مفهوم الهوية في مجتمع ما يختلف عنه في مجتمع آخر بسب اختلاف الأبعاد وتعدد المعايير أو تناقضها في بعض الأحيان.

لكن نحاول أن نعطي تصورا لهذا المفهوم على الأقل من خلال هذه الورقة البحثية على اعتبار أن الهوية عموما والهوية الحضرية على وجه التحديد صعبة التحديد، فإذا تعلق الأمر بالمجتمع الحضري وعلم الاجتماع الحضري تشير إلى ما يتمثله الأفراد من تصورات وممارسات داخل المدن تؤدي إلى الولاء للمدينة والأخذ بأسبابها والعمل على جعل المدن أكثر ملاءمة لساكنيها من خلال تعميق الاحساس والضمير الجمعي بأهمية العيش معا في مجال واحد تذوب فيه كل الخصوصيات لصالح العام والتخلي عن الممارسات التقليدية التي من شأنها أن تعيق التنمية الحضرية أو تزيد من الفوارق القبلية والعرقية داخل المدينة الواحدة، مما يشكل تهديدا للهوية الحضرية المشتركة، التي من أجلها وجدت المدن على اعتبار أن المدينة صانعة للهوية الحضرية.

كما تعتبر مفاهيم من قبيل المدينة والهوية الحضرية والاندماج الاجتماعي مفاهيم مرتبطة وظيفيا مع بعضها البعض، على اعتبار أن المدينة بفضل ما توفره من عوامل ومعطيات تساهم في إحداث عملية الاندماج الاجتماعي وبالتالي هذا الاندماج يؤدي كنتيجة حتمية إلى تبلور و

نشوء هوية حضرية داخل المدن تجعل من هذه الأخيرة مكانا للارتقاء الاجتماعي والتطور الثقافي على اعتبار أن المدن بطبيعتها مجال للابداع والاشعاع العلمي ومجال لظهور المواهب والابداعات بشتى أنواعها.

وفي الأخير فإن هذه الورقة البحثية تحاول البحث والكشف عن جانب من جوانب حياة المدن الجزائرية والمتمثل في الهوية الحضرية من خلال إسهام التمدن بشكل أساسي في حصول وصنع هذه الهوية الحضرية التي هي في نهاية المطاف شكل من أشكال الاندماج الاجتماعي الذي تنشده المدن، كل ذلك من خلال الإجابة على الإشكالية التالية: ما هو واقع الهوية الحضرية في المدينة الجزائرية؟

1-الهوية والهوية الحضرية:

يعتبر مفهوم الهوية من المفاهيم المتشعبة المعاني والمتداخلة التخصصات والمعارف, مما يصعب من توحيد مفهومه وجعله واحدا بين كل التخصصات التي تتناوله اشتغالا وعملا به، فيكاد يكون موجودا في كل علم دون استثناء على اعتبار أن لكل علم موضوعاته وبالتالي هويته العلمية التي تميزه عن باقي العلوم الأخرى، ويزداد الأمر صعوبة وغموضا إذا تعلق الأمر بالعلوم الاجتماعية والإنسانية التي هي في حد ذاتها تتسم بالنسبية في مفاهيمها، بل وحتى نظرياتها ومعارفها نتيجة الطبيعة الإنسانية التي تخص هذه العلوم واعتبار الإنسان هو محور السلوك ومختلف المواقف.

كما يعد مفهوم الهوية من المفاهيم المركزية التي تسجل حضورها الدائم في مجالات علمية متعددة ولا سيما في مجال العلوم الإنسانية ذات الطابع الاجتماعي، ويعد من أكثر المفاهيم تغلغلا في عمق حياتنا الثقافية والاجتماعية اليومية ومن أكثرها شيوعا واستخداما، وعلى الرغم من البساطة الظاهرة التي يتبدى فيها مفهوم الهوية فإنه وعلى خلاف ذلك يتضمن درجة عالية من الصعوبة والتعقيد والمشاكلة، وذلك لأنه بالغ التنوع في دلالاته واصطلاحاته، فالهوية ليست كيانا يعطى دفعة واحدة وإلى الأبد، إنها حقيقة تولد وتنموا وتتكون وتتغاير وتشيخ وتعاني من الأزمات الوجودية والاستلاب.[1]

وانتقل مفهوم الهوية انتقالا فارقا وواضحا بفعل عمليات الابتكار والتطورات التكنولوجية السريعة التي مست كل المعاني سواء المادية أو المعنوية ومن ذلك ما لحق بمفهوم الهوية جراء الابتكارات التكنولوجية وما توفره مساحات لخلق بديل عن الواقع في سياق وطني وحس جماعي والذي يساعد بشكل أو بآخر على بناء المعرفة المشتركة والهويات الجماعية، حيث تتشكل لدى الأفراد هويات عامة ومجردة، مما يعني أنهم لا يرون أنفسهم عموما باعتبارهم هم أبناء وبنات فلان أو جزء من عائلة أو سلالة أو كمواطنين بدولة في المقام الأول وأنما يرون أنفسهم أفرادا وأشخاصا مستقلين وعقلانيين يمارسون حياتهم بناءا على مبادئ عامة وأسباب محددة تنطبق عليهم.[2]

ويعتبر تعدد الهويات مرافقا لتعدد الأنساق التي يعيش في إطارها الفرد بين الهوية الثقافية والهوية السياسية وكذا الهوية العرقية أو الاثنية وكلها تعبير عن مجموعة من السمات والخصائص التي تميز فئة اجتماعية تتقاسم هذه الخصائص وتكون مجموعتها الخاصة بها، أي أنها تتجاوز الهوية الفردية الخاصة بكل فرد وفق سماته إلى هوية عامة اجتماعية تتقاسمها مجموعة من الأفراد.

ومن أشكال الهويات نجد الهوية الحضرية التي تكون المدن مجالا لها، فهي انعكاس لهُويّة الساكن الاجتماعية بمستوياتها الجمعية والفردية والمتحققة من خصائص شخصية المكان إذ تحقق شخصية المكان الطبيعية وشخصية المكان الحضارية التخطيطية، هُويّة للمجمع السكني على

[1] أليكس ميكشليلي، الهوية، ترجمة علي وطفة، دار الوسيم للخدمات الطباعية، ط1، دمشق، 1993،ص07.

[2] بوبكر الصديق بن شويخ، الفضاء العمومي الافتراضي ساحة للتعبير وتعزيز الحريات، مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد ابن باديس، مستغانم، المجلد 04، العدد07، ص07.

المستوى الجمعي، أما مستوى الهُوِيّة الفردي فيتحقق من خلال خصائص المكان الحضارية التصميمية المعاصرة كأساليب التكنولوجيا الحديثة، ولتنتقل الهوية الى المستوى الجمعي لابد من استمرارية تلك الخصائص التي تتعلق بشخصية المكان لضمان مدة رسوخها اجتماعيا، الذي يرتبط بمدة الإقامة في الوحدة السكنية او المجمع السكني.

كما أن من أهدافها ترسيخ ثقافة العيش الحضري المشترك على اعتبار وحدة المجال تؤدي إلى وحدة الاهتمام، وبالتالي الرقي من الفكر الفرداني المحدود إلى الفكر الجمعي الذي يتعزز معه الشعور بالانتماء والمواطنة ومبدأ الصالح العام، مما يعزز من فرص التطور والازدهار الحضري للمدن وجعلها مكانا ملائما للعيش المشترك ونبذ كل أشكال الصراع والاستحواذ والاستلاب وما ينتجه من مآسي وما يحدثه من تهميش فثوي يؤثر على أداء المدن وتطورها نحو الأفضل، ومن ذلك ما يذكره "ديفيد هارفي" في بعض المعاني المقاربة لمفهوم الهوية الحضرية خاصة في جزئية العيش المشترك، حيث يقول" إن الحق في المدينة أكثر من كونه مجرد حق فرد أو مجموعة في الوصول إلى الموارد الموجودة في المدينة: إنه الحق في تغييرها وإعادة اختراعها لتلائم أهواء قلوبنا بدرجة أكبر، وهو علاوة على ذلك حق جمعي أكثر من حق فردي، بما أن إعادة اختراع المدينة تعتمد حتما على ممارسة قوة جماعية من خلال عمليات التطوير العمراني (الحضرنة) urbanisation.[1]

2- بين هوية الإنسان وهوية المجال (إسهام جورج زيمل):

ارتبط الإنسان منذ القدم بالآخر الذي يقاسمه نفس المجال وانجر عن هذه الثنائية الهوياتية نسج علاقات اجتماعية ازدادت توسعا أفقيا وازداد معها تعقد هذه العلاقات الاجتماعية إلى حد أن وصلت إلى ما هي عليه اليوم من غموض وإبهام ارتبط بشكل أساسي بحياة المدن وتعقدها الملفت السريع والمستمر، مما جعل الرجوع إلى نقطة التأسيس بين الإنسان والمجال لمحاولة تفسير هذه العلاقة المحورية الحاضرة في أي معطى اجتماعي أو موقف اجتماعي يستدعي التفسير في إطار أشكال وقوالب اجتماعية وعلاقات تفاعل هي ما يشكل جوهر الحياة الإنسانية والاجتماع البشري، وبالتالي فإن الاهتمام المجرد بالأشكال الإجتماعية هو ما يعطي علم الاجتماع الحق في الوجود بالقدر نفسه الذي يجعل الهندسة علما لقدرتها على القيام بعملية تجريد حقيقية لأشياء مادية.

في هذا الاتجاه الشكلاني المادي أو ما يعبر عنه بالمجال نجد "جورج زيمل" يعبر عن مشروع سوسيولوجيا الشكل والمجال في جزء منه، وهو ما يسمح أيضا بالنظر إليه جزءا من التحليل الذي يرتبط بالحداثة في وجوهها المتعددة والمتناقضة، حيث تشكل المدينة الكبرى metropolis أهم تمظهراتها، كما طرحت كذلك إشكالات مرتبطة بالذات أو الهوية كمعطى مجرد وسابق للوجود، حيث يتم الحديث من طرف "زيمل" عن التحولات السريعة التي حدثت في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، أوجدت هويات مجالية جديدة وظواهر اجتماعية عكسها المجال "الميتروبولي" والتي كانت موضوع اشتغال ووصف من "زيمل" العلاقات النقدية والحياة في المدن الكبرى والموضة التي تقوم على ثقافة الاستهلاك، أوجدت هذه الأشكال الجديدة نمطا جديدا من الحياة الاجتماعية تميز بخلق وبروز هويات جديدة قائمة على منطق الفردانية والايقاع السريع للحياة أو كما يسميه بفلسفة المال، La philosophie de l'argent [2]

كما أن "جورج زيمل" لا ينفي الجانب المتعلق بالأحاسيس أو ما يعرف بالعامل النفسي، أي أن الشخصية تتعلم أو تؤقلم نفسها مع المدينة، حيث فسر "جورج زيمل" الحياة الحضرية على أنها استجابة إيجابية من سكان المدينة ليديروا ما يواجههم من تعقيدات، من هنا كان تطوير العلاقات غير الشخصية و إنقسام الحياة الإجتماعية ، إلى عوالم و مجالات منفصلة مثل عالم الأسرة ، و عالم العمل ، وعالم الأصدقاء

[1] ديفيد هارفي، مدن متمردة، من الحق في المدينة إلى ثورة الحضر، ترجمة لبنى صبري، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط01، بيروت لبنان، 2017، ص30.

[2]Georg Simmel,Les grandes villes et la vie de l'esprit, suivi de Sociologie des sens, Petite bibliothéque PAYOT ,Paris, p09

، و القدرة على الإندماج في علاقات نفعية زائلة ،و كدفاع ضد تعقيد الحياة الحضرية ، يحاول الناس أن يعيشوا في علاقة غير عاطفية، وعقلية، ووظيفية مع الآخرين، وهذا الدفاع يجعل الحياة منفصلة، و يطبق الضبط على كل واحد على حدة، و إذا حاول الناس في المدينة أن يعيشوا حياتهم في الأسرة وفي العمل وفي الصداقة، فإنهم يتحطمون عن طرق التعقيدات الكامنة في كل من هذه الوقائع التي يعيشونها في الوسط الحضري.[1] ، فلكي يتوافق الحضري مع هذا التعقيد النظامي بحسب "زيمل" عليه أن يكون أكثر عقلانية، وإحساسا بالكم والوقت، إن المال والعقل وليس الروح أو القلب يصبحان من أهم المقومات التي تضمن بقاء واستمرار وتوافق الشخصية الحضرية.[2]

إن التفكير في العلاقة المجالية الإنسانية تفكير دينامي مستمر ودلالة حضرية للمدن والمجال بشكل عام وثنائية مهمة في تحديد واقع الهوية عموما والهوية الحضرية داخل المدن بشكل خاص، هذه الأخيرة التي تتأثر باستمرار بتأثر قطبيها المجالي والإنساني، دون الإغفال عن ثنائية الذاتي والموضوعي أي الفرد والمجتمع، حيث يجب النظر إليهما كلا واحدا لا يمكن فصلهما أثناء دراسة الحياة الاجتماعية وعلى رأسها موضوع الهوية، لأن لا وجود لشكل اجتماعي لا يلازمه موضوع أو محتوى اجتماعي، هذا المحتوى الذي في وجهان: الأول ذوا طبيعة موضوعية يتجلى في إنتاج الأعمال والنشاطات والتقدم التقني وإنتاج الفكرة، أما الوجه الثاني فذوا طبيعة ذاتية وهو المتمثل في العناصر المختلفة المكونة للفرد التي تقويها التفاعلات الاجتماعية وعلاقات التبادل التي يدخل فيها مع الآخرين وتمنحه إمكانية الانتماء إلى الجماعة.

من هنا تتمحور وتتموقع الهوية الحضرية داخل المجال اعتمادا على درجة الانتماء لتشكل هوية حضرية مجالية مشتركة يلعب فيها مبدأ التقارب والتباعد دور مهما في تحديد معالمها وبالتالي الفاعلية ورسوخ الهوية الاجتماعية، فيصبح المجال انعكاسا للتراتبية الاجتماعية، حيث أن التركيز الاجتماعي يوجد حركية مجالية، فطبيعة المدينة وحجمها هما ما يسمحان بالمكانية سواء كانت هذه المكانية مؤسسة على التباعد أو التقارب، فالتركيز الاجتماعي يوجد حركية مجالية ويقارب العناصر مجاليا، على الرغم من أن هذا التقارب قد لا يعكس التقارب الاجتماعي المتجلي في الاقصاء الاجتماعي لبعض العناصر المساهمة في الحركية المجالية، إذ ليس كل فرد يملأ مجال ما يكون بالضرورة له تأثير في المجال، ينطبق هذا الأمر على الفقراء والمشردين والمنحرفين وحتى على الغرباء[3].

3-المدينة وتعدد الهويات:

إن تعقد المدن اليوم أصبح يطرح الكثير من الظواهر والاشكالات المصاحبة لحالة التعقد الذي باتت تفرضها الأنماط الاقتصادية والتكنولوجية على وجه الخصوص، مما يجعل التفكير في مصير الهوية الحضرية أمرا حتميا لمحاولة مقاربة هذه الهوية الحضرية واستقراء وتتبع واقعها والكشف عن مصير هدفها الأساسي المتمثل في نشر ثقافة العيش المشترك على اعتبار أن الأفراد يشكلون ذلك التوافق الحضري المنشود بينهم من جهة وبينهم والمجال الذي يعيشون فيه، من أجل بلوغ حالة الاندماج الاجتماعي التي تصل معها المعايير والقيم الحضرية إلى درجة الاقتناع وبالتالي جعلها المصدر الوحيد لمجموع القيم داخل المدن والغاء كل ما من شأنه أن يؤسس للقيم الخاصة التي تخدم فئة أو جزءا اجتماعيا أو كيانا من الكيانات المتعددة والمشكلة لنسق المدينة.

[1] يونس بنمورو، السوسيولوجيا الكلاسيكية و المسألة الحضرية، الحوار المتمدن-العدد: 4055 - 2013 / 4 / 7 - 22:11، انظر الموقع الالكتروني: http://www.alhewar.org/debat/show.art.

[2] السيد عبد العاطي السيد، علم الاجتماع الحضري، الجزء الأول، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 2003، ص86.

[3] أحمد الخطابي، نظرية المجال عند جورج زيمل، المجال بوصفه شرطا قبليا للبناء وإعادة البناءالاجتماعي، مجلة عمران، العدد 35، المجلدالتاسع، شتاء2021، معهد الدوحة للدراسات العليا والمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، 2021، ص178.179.180.

فإذا كان المأمول هو توحيد وتوجيه الهوية الحضرية لاستمرار أفضل لحياة المدن وما تتيحه من فرص الرقي الاجتماعي، فإن الواقع الاجتماعي والحضري اليوم يفاجئنا بقصور في هذا الهدف الأساسي للهوية الحضرية، لنجد أنفسنا أمام انشطار للهوية الحضرية الجامعة للكل إلى أجزاء هوياتية تتشكل باستمرار وفق معايير وأسس تفرضها ظروف الحياة وتغيراتها المستمرة التي مست وتمس الفئات والأطياف الاجتماعية منتجة بذلك هذا التنوع الهوياتي الذي يعتبر حالة من حالات التكيف الحضري لمجابهة ظروف القهر والإقصاء الممارس داخل المدن هذا الاقصاء الذي تعددت أوجهه بداية بالعرقي الاثني ومرورا بالسياسي والثقافي وكذا الديني.

لتجد المدينة نفسها مع هذا التعقد الهوياتي في قلب إشكالية المدن والفضاء الحضري الذي من جوانبه التمثيل لدى الفئات الاجتماعية التي تريد الاستحواذ والهيمنة على الفضاء وتغيير الفروق المختلفة لوضعياتهم الاجتماعية وظروف معيشتهم "إنه لكاشف وملفت للنظر أن يكون بيان رؤساء بلديات فرنسا معنونا ب: "وطني هو المدينة" داعيا إلى المرجعيات الوطنية إلى نكران الذات لصالح دلالة تجد صعوبة في أن تصبح موضوعية، صحيح أنه في غياب الاهتمام بالمواطن واحتياجاته يبدوا من المناسب جدا لخطاب براق وأناني التذكير بالروابط المقدسة التي تمثلها الأمة المهددة، فإن العبارة تكشف بداخلها تحلل الرابطة الاجتماعية والتي تشهد لها بذلك الذات والأمراض التي التي أصابت بعض الفئات الاجتماعية...إن الأمراض التي كشفت عنها ضواحي المدن أو تعفن وسط المدن هي هنا لتذكرنا باستمرار أن المدن أصبحت أماكن للتعبير عن مجتمع مجزأ ومفكك ومتعدد إلى أبعد الحدود[1]، فمثل هذه الظروف تزداد صعوبة الإبقاء على مثاليات الهوية الحضرية والمواطنة والانتماء أو بالأحرى السياسات الحضرية المتسقة –المهددة بالفعل بسبب انتشار الشعور بالضيق من الأخلاقيات النيوليبرالية، الفردانية.[2]

ولأن المدينة هي في نهاية المطاف نتاج لجهود ومواقف الفاعلين الاجتماعيين على مختلف مستوياتهم فإن هذا النتاج هو في كثير من الأحيان استمرار لخطابات مختلفة تنموا وتتعزز وفق استراتيجيات وأهداف محددة منها ما هو معلن ومنها ما هو خفي، لتجد المدينة نفسها مجالا وساحة لصراع هوياتي يصل لحد الصراع الايديولوجي الذي يهدد شعارات ومعاني الهوية والمواطنة والانتماء وكذا العيش المشترك لصالح بروز وانتشار معاني التعصب والقبيلة والحزب...الخ، ليعاد من جديد الحديث عن مدى جودة وقدرة الحياة الحضرية التي تلغي الهويات لصالح الهوية الواحدة، أم أن المدينة تأقلمت مع الوضع الراهن والأمر الواقع، مما يجعلها بدل التفكير في تعزيز مبدأ الهوية الواحدة، تفكر في كيفية جسر الهوة بين الهويات المشكلة للمجال الحضري على اختلاف مشاربها وتعدد مضامينها وأهدافها.

4-الاندماج الاجتماعي وإشكالات المدن:

يقصد بالاندماج سوسيولوجيا السيرورة الاثنولوجية التي تمكن الشخص أو مجموعة من الأشخاص من التقارب والتحول إلى أعضاء في مجموعة أكبر و أوسع عبر تبني قيم نظامها الاجتماعي وقواعده، لذلك يستلزم الاندماج شرطين هما: إرادة الإنسان وسعيه الشخصي للاندماج والتكيف أي التعبير الطوعي عن اندماجيته intégrabilité ثم القدرة الاندماجية للمجتمع للمجتمع عبر احترام اختلاف الأشخاص وتمايزاتهم[3] ، وانطلاقا من هذا التعريف يعتبر الاندماج سمة من السمات التي يسعى التحضر أو التمدن إلى إحداثها وتحقيقها على

[1] جان فرانسواتتي، المدينة والإعلام، ترجمة عبد الله ثاني قدور، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر،ط1، الجزائر، 2011، ص15.16.

[2] ديفيد هارفي، مرجع سابق، ص45.

[3] أمحمد مالكي، الاندماج الاجتماعي وبناء مجتمع المواطنة في المغرب الكبير، المؤتمر السنوي الثاني للعلوم الإجتماعية والإنسانية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، 30-31مارس 2013، ص05.

مستوى الأفراد والجماعات، على اعتبار أن هذه السمة (الاندماج الاجتماعي) شكل من أشكال التفاعل الاجتماعي داخل المدن التي تحاول باستمرار تحسين جودة العلاقات الاجتماعية بغية الوصول إلى مجتمع منسجم متصالح مع كل أنساقه الاجتماعية.

ولا يعتبر الاندماج مفهوما جاهزا تنتجه الدول في لحظة من لحظات تطورها، بل هو صيرورة وجهد ونضال وصراع ارتبط بمختلف المراحل التاريخية لنشوء المجتمعات والدول، هذه الأخيرة التي مازالت تشق طريقها لتحقيقه والوصول إلى تحقيق قيم ومبادئ الاندماج الاجتماعي، وتختلف تبعا لذلك درجات تحقيق هذا الهدف بحسب البيئات والنضالات التي يقدمها الساكنة في أي مجتمع، ففي حين نجد أن المدينة الغربية قطعت أشواطا متقدمة في هذا المجال، نجد أخرى ما زالت تكابد الطريق ومنها ما يتعثر نتيجة الخلفيات والتركات الاجتماعية والثقافية وكذا السياسية التي تعيق وتبطئ من عملية الاندماج الاجتماعي داخل المدن، وبالتالي داخل الدول في مستوى أعلى، لأن الاندماج على مستوى المدن هو الذي يصنع مجتمعا مندمجا على مستوى الدول.

ومن هذه المجتمعات نجد المجتمعات العربية عموما والمجتمع الجزائري خصوصا ينشد كذلك بلوغ حالة الاندماج الاجتماعي، هذا الأخير الذي إذا ما أردنا تتبع مساره بوصفه محدثا للهوية الحضرية، فإننا نجد أنفسنا مرغمين على تعداد الجوانب التي تعتبر إشكالات حضرية، وبالتالي يمكن القول أن عملية الاندماج وصيرورته تأثرت بعديد الإشكالات الحضرية التي أعاقت وصول المدينة الجزائرية إلى صنع هوية حضرية مشتركة وبالتالي بلوغ مرحلة الاندماج الاجتماعي المنشود، وفيما يلي نحاول التطرق إلى أهم الاشكالات الحضرية التي تعرفها المدينة الجزائرية والتي أعاقت تشكيل الهوية الحضرية.

4-1السكن وإشكالية التملك:

يعتبر الإسكان ملمحا مهما في تحديد درجة الاندماج الاجتماعي بالنسبة للأشخاص، وبالتالي بالنسبة للمدن على اعتبار أن النسق السكني الجماعي هو سكنات تشكل جوهر المدينة وماهيتها ومن ذلك التناسق على مستوى السكنات من حيث التخطيط والخصائص العمرانية والبعد القيمي والجمالي والانسجام مع عناصر المحيط والبيئة ومتطلبات المدينة، لكن للأسف فإن هذا الإنسجام الحضري تأثر بعديد الاشكالات السكنية التي باتت تعرفها المدينة الجزائرية وعلى رأس هذه الاشكالات نجد أزمة السكن التي تعتبر إشكالا معقدا نظرا لارتباطه بحاجة الأفراد الملحة من جهة وكذلك ارتباطه بظواهر تنتج عنه أو ينتجها من جهة أخرى، مما جعل القائمين على السياسية الحضرية والاسكانية على وجه التحديد في التفكير في إيجاد حلول اسكانية لمجابهة حجم الطلب الهائل من طالبي السكن، مما انعكس على جودة السكن في مقابل الكم الذي كان الغرض منه تهدئة الواقع الاجتماعي دون مراعاة للجانب المتعلق بالقيم والهوية والانتماء الحضري، مما جعل السكن بدل أن يكون فضاء للاستقرار والتعبير والشعور بقيمة الإنسان وفاعليته داخل مدينته إلى فضاء لبروز عديد الاشكالات الناجمة عن خلل في التكيف والاندماج مع المسكن داخل المدينة، ومنه فإن مشكلة الإسكان تتجسد في زيادة معدلات التزاحم على الأرض وارتفاع المباني وتضاعف المساكن وارتفاع الإيجارات وغير ذلك من المظاهر الحضرية والمشاكل الاجتماعية والاقتصادية والبيئية التي ترتبط أساسا بعملين هما: زيادة نسبة التحضر في المدن وكذا النمو الديمغرافي الذي يعتبر من العوامل الأساسية التي تؤدي إلى فقدان التوازن وظهور الأزمات التي يعيشها المجتمع المعاصر[1].

[1] حفيظي ليليا، المدن الجديدة ومشكلة الإسكان الحضري، رسالة ماجستير في علم الاجتماع الحضري، جامعة منتوري، 2008-2009، قسنطينة، الجزائر، ص59.

كما أن إشكالات السكن لم تتوقف عند معضلة الأزمة السكنية نتيجة معادلة العرض والطلب، بل تعدت إلى مستوى الفعل والممارسة الحضرية من طرف المستهلكين للمجال أو المتملكين له، خاصة أصحاب المساكن الفردية ذات الطابع الجماعي والاجتماعي، هؤلاء الذين يقومون بتعديلات وتغييرات في بنية المسكن الممنوح لهم، هذه التغييرات والتعديلات التي التي تخضع للبعد الذاتي والشخصي بحسب أهواء أصحابها ولا تراعي البعد القيمي الجمالي الاجتماعي العام للسكن مما يؤدي إلى تشويه المنظر الحضري للمدن وبالتالي فقدان الحس الجمالي للمدينة الذي بدوره يؤثر وينعكس سلبا على البعد المتعلق بثقافة المدن والعيش المشترك وبالتالي إختلالات على مستوى تشكل الهوية الحضرية التي في إطارها يتصالح الفرد مع مجاله الخاص (المسكن)، والذي بدوره ينعكس على مجاله العام (المدينة).

2-4 هوية المدن:

لا شك أن أي مدينة لا تعيش بحاضرها فقط، بل هي امتداد تاريخي منذ النشأة و التي يعتبر البعض منها(المدن) ضاربا في التاريخ، من خلال تعاقب الأزمنة والحضارات، فمنها ما اندثر وتلاشى ومنها ما بقي إلى اليوم شاهدا على هذه الصيرورة التاريخية، وفي الجزائر شهدت المدينة هزات عمرانية عنيفة أدى بها إلى فقدان الكثير من خصائصها العمرانية خاصة الإسلامية منها حين وجهت المدينة الجزائرية وجهة استعمارية عن طريق تفعيل البعد الكولونيالي في إنجاز المدن وخاصة في مدينة الجزائر في مرحلة أولية، مما جعل الهوية الحضرية أمام محاولة اجتثاث وقطع مع تاريخها الضارب في القدم، مما أدى إلى تشكيل نمط حضري أوروبي يتماهى مع السياسة الاستعمارية وأهدافها في القضاء على كل ما يمت للهوية بصلة سواء كان في بعدها المادي (المدن) أو في بعدها الاجتماعي المعنوي(القيم)، فقد برزت نظرة جمالية للمدينة تظهر فيها العوامل الأساسية المحددة للفن المعماري الأوروبي، وظهرت مباني فخمة تعبر عن قوة المجتمع الاستعماري وعلى تخطي البعد الحضاري للمجتمع الأصلي، وكان محصلة ذلك تبني سياسة عمرانية استعمارية من قبل الماريشال "ليوتي"Lyauty، في كل بلدان المغرب العربي.[1]

لم تكن الهوية الحضرية للمدن وحدها محل طمس واجتثاث، بل تجاوز ذلك إلى الهوية الريفية خاصة إذا علمنا أن غالبية السكان في الجزائر غداة الاستعمار كانوا ريفيين بالدرجة الأولى نتيجة التنظيم الاجتماعي للفرد الجزائري وارتباطه الوثيق بالأرض التي تعتبر معطى أساسي في التنظيم والبناء الاجتماعي للمجتمع الريفي ككل، عن طريق انتهاج سياسات قائمة على عمران المحتشدات وكذا تفتيت وتفكيك الواحدة الاجتماعية القائمة على الأرض عن طريق قوانين الملكية العقارية الفرنسية وما انجر عنها مصادرة للأملاك العقارية من أصحابها لصالح ملاك جدد اطلق عليهم بالمعمرين، بالإضافة إلى الهدف الآخر المتعلق بفصل الريف عن الثورة التحريرية على اعتبار أن الريف كان يمثل سندا قويا للثورة والثوار عن طريق انتهاج سياسة الأرض المحروقة، مما أثر على هوية الأفراد الريفية، تأثير امتد عمقه إلى اليوم نتيجة اختلال العلاقة بين الأرياف والمدن التي نعاني من تبعاتها إلى اليوم و من ذلك حركة النزوح الريفي الحاد والهجرة من الأرياف نحو المدن وما ينجر عنه من إشكالات على المجالين الريفي والحضري، وبالتالي ضياع الهوية الحضرية بين ضياعها في المدن وكذلك الأرياف والبوادي.

3-4 الهامشية الحضرية:

من العوائق التي تحد من فاعلية دور المدن في تشكيل وعي جمعي تتشكل من خلاله الهوية الحضرية وتزيد فيه فرص الاندماج والارتقاء الاجتماعي نجد عامل الهامشية والاغتراب الحضريين، هاذين العاملين اللذين يلتقيان في مشترك مهم يتمثل في عيش الفرد خارج النظام العام

[1] بوجمعة خلف الله، المدينة الجزائرية والبحث عن الهوية، مجلة دفاتر المعرفة، العدد 04، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، ص101.

الذي تقتضيه حياة المدن، وبالتالي الخروج عن قوانين الدولة وأطرها الرسمية، كما أن مظاهر الهامشية الحضرية تفاقمت وأصبحت تشكل عبئا اقتصاديا ةاجتماعيا وسياسيا...الخ ولا أدل على هذه الهامشية وجود وانتشار الأحياء المتخلفة والفوضوية التي اجتاحت هامش المدينة وضواحيها، بل تعدت ذلك إلى أن تموقعت داخل النسيج الحضري للمدن، فتحولت الحياة دلخل هذه الأحياء على هامش حياة المدن وثقافتها، ففيها تتحول كل مناحي الحياة على الهامش "فهي وضع متدني في إطار نظام للتدرج الاجتماعي، يتولد عنه محاصرة فئة اجتماعية وعزلها كليا أو جزئيا"[1] .

فيتحول الشعور والاهتمام بالهوية الحضرية من هدف منشود داخل المدن إلى أنشطة تتم خارج الأطر الرسمية من عمل مواز وبناء عشوائي، فعندما لا تستطيع المدينة استيعاب سكانها في أنشطتها ومؤسساتها الرسمية وإدماجهم بكل فاعلية، فإنهم يلجؤون إلى النظم الاجتماعية الأولية والأطر الغير رسمية التي تحقق لهم الاندماج وتوفر لهم الحماية الاجتماعية الضرورية وتشكل لهم هويتهم الخاصة بهم، وهذه هي الهامشية المضادة، أي تهميش الأطر الرسمية من خلال الأطر الغير رسمية، بمعنى أن الهامشية الحضرية تنتج عن عدم القدرة على الوصول إلى إشباع الاحتياجات الحيوية بالوسائل الشرعية من سكن وعمل وخدمات حضرية، كما تنتج من التفاوت الكبير والتباين الشديد بين مختلف فئات المجتمع لسكان المدينة الذي يخلق نوعا من التمايز الاجتماعي خاصة في السكن والخدمات، الأمر الذي ينمي ويعزز الشعور بالإحباط الذي تنعكس آثاره سلبا على الوئام والانسجام[2] وبالتالي استحالة البحث عن تشكيل هوية حضرية فاعلة في ظل ظروف القهر والبؤس التي تعرفها المدينة.

ومن نتائج الهامشية الحضرية والاغتراب عدم فعالية الأفراد والجماعات والمؤسسات في أداء أدوارها وذلك عندما تتحول البيئة الحضرية من فضاء واسع ومفضل للإنتاج والإبداع إلى بيئة معيقة لذلك، بسبب الاختناقات والضغوطات والإرهاق النفسي والمعنوي والبدني والاستنزاف الاقتصادي وهدر الطاقات الموجودة، التي تؤثر سلبا في الفاعلين الاجتماعيين الحضريين.

خاتمة:

لا يمكن بناء هوية حضرية خارج إطار المدن والتجمعات الحضرية الكبرى على اعتبار أنها المجال الأول للعيش المشترك والتعبير عن ثقافة المدن من خلال الابداع والتفوق في كل المجالات واكتشاف الطاقات وبروز المواهب وفضاءات الاشعاع والرقي الثقافي بكل أبعاده، هذا الرقي الذي لا يتحقق إلا في إطار شعور وحس مشترك بضرورة تفعيل ثقافة العيش الحضري المشترك ونبذ عوامل التصدع والفرقة والانقسام الاجتماعي الذي بات اليوم يهدد النسيج الاجتماعي والحضري على حد سواء جراء تنامي أسباب الهوة والانقسام ممثلة في تشكل الهويات داخل المجال الواحد في بعده المحلي أو الوطني، بل حتى الاقليمي والدولي نتيجة تعدد الاهتمامات والايديولوجيات، بل حتى الاثنيات والعرقيات، مما جعل التفكير في إنتاج هوية حضرية داخل المدن أمرا صعبا إن لم نقل مستحيلا جراء حالة الهامشية السياسية والاجتماعية والثقافية التي انعكست بوادرها على السلوك الاجتماعي للأفراد.

فلم يعد بناء الهوية اهتماما محوريا في حياة الأفراد نتيجة ظروف الحياة داخل المدن من بؤس وقهر اجتماعي وتفاوت طبقي جعل التفكير في ضروريات الحياة وتجاوز صعوباتها مقدما عن أي حديث يدور حول الهوية وبنائها والتشجيع عليها من طرف السياسي الذي يسعى الى

[1] ابراهيم توهامي وآخرون، العولمة والاقتصاد الغير الرسمي، مخبر الإنسان والمدينة، جامعة منتوري قسنطينة، 2004، ص65.

[2] يعلي فاروق ، التحضر والعلاقات الاجتماعية للأسرة النازحة –دراسة ميدانية لمدينة سطيف–، رسالة مقدمة لنيل ماجستير في علم الإجتماع ، جامعة الجزائر 2007، ص96.

تسويق شعارات الانتماء والهوية والمواطنة وثقافة الحق والواجب، في حين أن الواقع يؤشر على ما هو أبعد وأخطر من هذه الشعارات حين تصادف بتعدد الهويات والانتماءات بدل الانتماء الواحد و حتمية المصير المشترك.

مما يجعلنا في نهاية هذه الورقة العلمية نعتقد أن طريق الاندماج الاجتماعي الموصل إلى إنتاج الهوية الحضرية داخل المدن مازال بعيدا وتعترضه عقبات الواقع والماضي المحمل بأثقال التاريخ وندوب الاستعمار الذي أنهك تشكيل الهوية وثقافة العيش المشترك، لنجد أنفسنا ملزمين على إعادة صياغة واقع إجتماعي تتجدد فيه الخطابات بكل أنواعها، وإعادة توجيه بوصلة الخطاب حتى يخاطب جيلا جديدا يطمح إلى تعريفه بمعاني الهوية وعناصرها وطرق بلوغها، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال إعادة الاعتبار لأهمية ودور وسائل التنشئة الاجتماعية في تلقين درس الهوية بكل أبعاده وعناصره بعيدا عن تناقضات الأيديولوجيا المقيتة وتمصلات الانتماء الضيقة.

قائمة المراجع:

مراجع باللغة العربية:

1- السيد عبد العاطي السيد، علم الاجتماع الحضري، الجزء الأول، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 2003.

2- أليكس ميكشليلي، الهوية، ترجمة علي وطفة، دار الوسيم للخدمات الطباعية، ط1، دمشق، 1993.

3- ابراهيم توهامي وآخرون، العولمة والاقتصاد الغير الرسمي، مخبر الإنسان والمدينة، جامعة منتوري قسنطينة، 2004.

4- جان فرانسواتتي، المدينة والإعلام، ترجمة عبد الله ثاني قدور، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر،ط1، الجزائر، 2011.

5- ديفيد هارفي، مدن متمردة، من الحق في المدينة إلى ثورة الحضر، ترجمة لبنى صبري، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط01، بيروت لبنان، 2017.

مقالات:

6- أحمد الخطابي، نظرية المجال عند جورج زيمل، المجال بوصفه شرطا قبليا للبناء وإعادة البناءالاجتماعي، مجلة عمران، العدد 35 المجلد التاسع، شتاء2021، معهد الدوحة للدراسات العليا والمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، 2021.

7- أمحمد مالكي، الاندماج الاجتماعي وبناء مجتمع المواطنة في المغرب الكبير، المؤتمر السنوي الثاني للعلوم الإجتماعية والإنسانية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، 30-31مارس 2013.

8- بوجمعة خلف الله، المدينة الجزائرية والبحث عن الهوية، مجلة دفاتر المعرفة، العدد 04، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر.

9- بوبكر الصديق بن شويخ، الفضاء العمومي الافتراضي ساحة للتعبير وتعزيز الحريات، مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد ابن باديس، مستغانم، المجلد 04، العدد07.

رسائل جامعية:

10- حفيظي ليليا، المدن الجديدة ومشكلة الإسكان الحضري، رسالة ماجستير في علم الاجتماع الحضري، جامعة منتوري، 2008-2009، قسنطينة، الجزائر.

11- يعلي فاروق ، التحضر والعلاقات الاجتماعية للأسرة النازحة -دراسة ميدانية لمدينة سطيف-، رسالة مقدمة لنيل ماجستير في علم الإجتماع ، جامعة الجزائر 2007.

مواقع الكترونية:

12- يونس بنمورو، السوسيولوجيا الكلاسيكية و المسألة الحضرية، الحوار المتمدن-العدد: 4055 - 2013 / 4 / 7 - 22:11، انظر الموقع الالكتروني: http://www.alhewar.org/debat/show.art.

مراجع باللغة الفرنسية:

13-Georg Simmel,Les grandes villes et la vie de l'esprit, suivi de Sociologie des sens, Petite bibliothéque PAYOT, Paris.